سرّ الاعتراف

"جُزنا في النار والماء لكنّك أخرجتنا إلى منتجع راحة" (مز 65: 12)

الأرشمندريت زخريا زاخارو

خلال سرّ الاعتراف، كلّما كان شعورنا بالخزي أعمق، نلنا قوّةً ونعمةً أعظم لتجديد حياتنا. في كلّ مرّةٍ نكشف فيها أفكارنا ببساطةٍ أمام الكاهن، واثقين به، يحصل تجدّدٌ صغيرٌ في نفوسنا. إنّ النعمة تنير النفس فتزوّدنا بالشجاعة التي نحتاج إليها لنقوم بوثبة الاعتراف. وبعد أن نعترف بإخفاقنا، يساعدنا الكاهن على أن نرى الهدف الذي انحرفنا عنه، ويُعيدُنا إلى درب التوبة المؤدّي إلى الحياة. إذ ذاك يتّضع قلبنا، مجتذبًا المزيد من نعمة الربّ الشافية.

قبل أن نجد التوبة تكون قلوبنا قاسية. نشعر بالفراغ ولا نجد معنىً للحياة، هذه الحياة التي تقودنا إلى هاوية العدم. وعندما نتوب ونعترف بتواضع، نتألّم بسبب قباحة سقطتنا. خلال شعورنا بضيق الخزي، نشعر بأنّنا في أزمة وبأنّ نفسنا مكشوفة، "عريانةً ومكشوفة" (عب 4: 13). ونحن بحاجةٍ إلى أن ندرك هذا، إذ عندها نُخبر الله بالحقيقة، والله يصغي إلينا. نعترف بأنّ كلّ إنسانٍ كاذب (مز 116: 11)، وبأنّ الله وحده هو الحقّ. حين ننطق بالحقيقة، نشعر بشعلةٍ صغيرةٍ تدفئ قلوبنا، ثمّ هذه الحرارة في قلوبنا المنسحقة تُحرق كلّ الأفكار الغريبة وكأنّها ذباب.

يجب علينا دومًا أن نحاول تقديم أشياء جديدة لله، وأن نقدّم له اعترافاتٍ جديدةً ببؤسنا وتعاستنا، وأن نجد طرائق جديدةً للتواصل المُحيي مع حضرة الله. لكن إن سمحنا لأنفسنا بالاحتفاظ بفكرٍ خفيٍّ كامنٍ في قلوبنا، سواءٌ أكان فكرَ كبرياءٍ أم شهوةٍ أم غضب، فإنّ هذا الفكر سيقودنا في وقتٍ ما إلى الخطيئة. أحيانًا، لا نحارب ذاك الفِكر الخفيّ فورًا، بل نحاول تجاهله. وقد نشعر أيضًا بأنّنا تصدَّينا للفكر وأنّ الأمر انقضى. ولكنْ عندما يواجهنا أمرٌ آخر، يعود ذلك الفكر الخفيّ إلى الظهور بقوّةٍ أعظم، ويتحوّل إلى كلامٍ أو تعليق، مُدمّرًا حالتنا الروحيّة الثمينة التي اكتسبناها بكثيرٍ من التعب.

إنّ الاعتراف بأفكارنا يسهم أيضًا في يقظة الذهن، وبخاصّةٍ في السنوات الأولى من حياتنا الروحيّة. والكشف عن أفكارنا خلال الاعتراف يُضعف من قوّة العدوّ ضدّنا. يمكننا أن نقتني اليقظة من خلال تعزيز انسحاق القلب الذي نكتسبه عبر خزي الاعتراف. إنّ الخزي الذي نكابده في الاعتراف مرّةً تلو الأخرى يتحوّل إلى قوّةٍ ضدّ أعدائنا، فيحرّر القلب من قيوده الكثيرة لكي يتمكّن من سلوك طريق الوصايا بحماسةٍ متزايدة. تحمل قوّة الاعتراف في طيّاتها ألمًا يشبه ألم الصليب، لكنَّ تلك الآلام تساعد في التعويض عن نقص أعمالنا النسكيّة. وتعلّمنا نعمةُ الروح القدس بطريقةٍ مباشرةٍ كيفيّة استعمال كلّ عضوٍ من أعضائنا في هذه الحرب غير المنظورة: "مُبَارَكٌ الرَّبُّ قوّتي، الَّذِي يُعَلِّمُ يَدَيَّ الْقِتَالَ وَأَصَابِعِي الْحَرْبَ" (مز 144:1).

ليس علينا أن نفتّش عن كلماتٍ فصيحةٍ للاعتراف، بل أن نسعى لتطهير قلوبنا وتحريرها كي نستطيع أن نحبَّ الربّ كما يستحقّ أن يُحَبّ، وأن نشعّ نور حنانه لمَن حولنا. عندما ظهر الربّ القائم من بين الأموات للتلاميذ، اقتبل هؤلاء مسحة النعمة. نطق الربّ بعدها بالكلمات التي أنشأت مملكته على الأرض ووضعت دستور كنيسته: "مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ" (يو 20: 23). وكان قد نفخ فيهم الروح القدس أوّلًا، لأنّ الروح "يندّي اللهيب ويحلّ العقالات" (سحر العنصرة، إرموس الأودية الثامنة)، ويخلّص الإنسان من قيود الخطيئة، ويطفئ نار القلب المتعطّش إلى الله.

إن لم يبلغ الإنسان اللاهوى والحرّيّة الروحيّة، فكيف له أن يخلّص الآخرين من الأهواء؟ إن كان هو مستعبَدًا [للأهواء] ولا يحمل في داخله ولو قدرًا ضئيلًا من نعمة الروح القدس، فكيف له أن ينقل ثمار هذا الروح للذين حوله؟ لقد أخذ الرسلُ التلاميذُ الروحَ القدس مجّانًا، لكي بالمجّان يعطوا ثمار هذا الروح للناس، وبذلك يُخلّصونهم من سلطان الأهواء. إلّا أنّهم في الوقت ذاته، قد أُعطوا قوّة التمييز لكي يتبيّنوا النفوس التي ستبقى مُستعبَدةً للخطيئة. في تلك اللحظة، تلقّى الرسل والآباء ومَن خلَفهُم [من الآباء] عبر الأجيال، السلطان من الربّ، لا لكي يغفروا فحسب، بل أيضًا لكي يمحوا آثام أولئك الذين يميّزون أنّهم يتقدّمون إليهم بروح التوبة، تلك الروح التي تجعل الإنسان مستحقًّا لنيل مغفرة الخطايا.

أمّا الذين يتقدّمون "مجرِّبين الربّ" (يشوع بن سيراخ 18:23)، راضين عن أنفسهم بقلوبهم المتعالية، فخطاياهم تُمسَك، لأنّ كلمة الله تحذّر بأن لا تُعطى القدسات "للكلاب"، ولا تُطرح "دُرر" عطيّة الروح

القدس "قدّام الخنازير" (انظر متّى 7: 6). إنّ عمل الرسل ومَن خلفَهم هو عمل خدمةٍ تجري في الروح القدس، وفي الوقت نفسه تنقل الروحَ القدس. وبحسب قدرة كهنة الكنيسة على التمييز، يصيرون "وكلاء صالحين على نعمة الله المتنوّعة" (1 بطرس 10:4) من أجل إخوتهم.

منذ لحظة حلول الروح القدس على الأرض، حلّ "ليبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونة" (يوحنّا 16: 8-9). بدايةً، تفتح عطيّة الروح القدس أعيننا على هاوية خطيئتنا وظلمنا، فنرى عندها "أعمال برّنا كخرقةٍ قذِرة" (إشعياء 64: 6)، وأفعالنا كبذارٍ لجهنّم المستقبليّة. بعدها يُظهر الروح القدس عدالة الله الحقيقيّة، التي عبّر عنها المسيح على الصليب: "يا أبتاه اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو 23: 34). قيلت تلك الكلمات مرّةً واحدة، لكنّ قوّتها تبقى إلى الأبد، جاعلةً فِعل التوبة ممكنًا للجميع. ومن خلال هذا كلّه، يقودنا الروح القدس إلى الشكل الحقيقيّ الوحيد للدينونة: أن ندين أنفسنا بدلًا من أن ندين الآخرين. عظيمةٌ هي إدانة الذات في عينَي الربّ، لأنّها إقبالٌ طوعيّ على الدينونة الحقيقيّة الوحيدة.

إدانة الذات هي عملٌ للتواضع ضروريّ ونبويّ، نُقبِلُ عليه بمحض إرادتنا. مع ذلك، بما أنّ الخزي وحده يكشف بالكامل حالة قناع قلبنا، حالته الحقيقيّة البشعة، فمن المفيد لنا أن تختبرنا العناية الإلهيّة التي تسمح بأن يُزلزل حياتَنا الألمُ غير الطوعيّ أيضًا. في الواقع، يكشف الشعور بالخزي محتوى قلب الإنسان، على حدّ قول القدّيس غريغوريوس بالاماس (العظة الثانية من كتاب العظات)، ولكن ليس ذلك فحسب، بل يكشف أيضًا مدى وجود الصفة النبويّة في قلبنا، التي يُظهرها اتِّضاع سلوكنا. إلّا أنّنا لن نتمكّن من مواجهة تجارب من هذا النوع، بسلوكٍ مرضيٍّ لله وخالٍ من الخطيئة، إلّا إذا استعددنا بواسطة هذا العلم النبيل الذي ذكرناه، وهو التواضع الطوعيّ.

تتألّم نفسنا وتحترق في أتّون التوبة لكي تتصالح مع الله. وفي بعض الأحيان، يأخذ فكرٌ بالتسلُّل إلى أذهاننا قائلًا: "لمَ هذه الحماقة، أليس من الجنون أن نحترق في هذه النار عوضًا عن العَيش برغدٍ مثل الآخرين؟". إذا قبِلْنا هذا الفكر، تخمد للوقت النارُ الملتهبة فينا، وننزل عن صليب التوبة. يخفّ الألم، ولكنّ النعمة التي اختبرَتْها النفس تنسحب هي أيضًا، ربّما على نحوٍ غير مدرك، بشكلها المحايد. نصير بلا ألم، ولكن ما أشقانا إذ نكون أيضًا خاوين، منفصلين عن نعمة التبنّي وبركة الصليب. عندما نتعلّم أن نميّز يد الله حتّى "في

وسط أتّون النار المتّقدة"، عندها تتحوّل النار إلى ريحٍ ذات ندى تهبّ، ولا "تمسّنا النار البتّة ولا تسوءُنا ولا تزعجنا" (انظر تتمّة دانيال 3: 26، صلاة عزريا).

الروح القدس نارٌ وعطيّته مزدوجة: التطهير والإنارة. وحلول الروح القدس يختم مصالحتنا مع الله، هادمًا سياج العداوة المتوسّط. لدى جميعنا الإمكانيّة لتكرار سرّ العنصرة في حياتنا كما فعل القدّيسون على مرّ الأجيال. لكن علينا أن نستعدّ لذلك بأن ندخل عليّة قلبنا، ونقيم هناك راسخين في استدعاء اسم الربّ. إنّ عملنا في النوح والتوبة، حتّى الدم أحيانًا، هدفه أن نفتح باب القلب لكي "نرجع إلى أنفسنا" (لو 15: 17)، ونعود إلى أرض الميعاد، إلى ملكوت الله الذي في داخلنا (لو 17: 21). تعاني روحنا وتتألّم لأنّ قوّة الروح القدس المُطهِّرة تسبّب لها ألمًا حادًّا. لكن، تتحوّل تلك الآلام تدريجيًّا إلى نسيمٍ لطيف، إلى "أنّاتٍ لا يُنطق بها" (رو 8: 26)، صارخين "يا أبّا الآب" (غل 4: 6).

بهذه الطريقة، نبني علاقةً قويّةً مع الربّ، لا تنكسر ولا تنفصم عراها، وهذه تُبارِك علاقاتنا الأخرى كلّها في هذا العالم الحاضر، وتجعلها قويمةً بما يتّفق مع ناموس الله ومشيئته. يحرث ألمُنا وخزيُنا أرضَ قلبنا المجدبة، فيقتلعان منه الأهواء المهينة. يسمح الربّ بأن يجوز خادمه "في النار والماء"، لا لشيءٍ إلّا ليخرجه "إلى منتجع راحة".

كلّما كان التزامنا بوصايا الربِّ أكثر ثباتًا، كانت صِلتُنا بالله أقرب لا تنكسر، وكان إحساسنا بحضوره في قلوبنا أكثر وضوحًا. ما دُمنا نحبُّ الربّ بكلّ قلوبنا، ونطلب وجهه بتعطّشٍ لا يرتوي، ونطيع مشيئته المقدّسة، فلن يُحرَم أحدٌ منّا من نعمة ظهور المسيح القائم من بين الأموات ومن حضوره المُحيي. غير أنّنا لا نملك خيارًا آخر سوى أن نصبح حازمين وحكماء وشجعانًا، وخلّاقين في ابتكار طرائق لوضع بداية جديدة، متقدّمين نحو الربّ بتوبةٍ جديدةٍ كلّ يوم، ومردّدين، دون انقطاع، بالعزم ذاته: "صالحٌ أنتَ يا ربّ، أيّها الإله الحقيقيّ. أنتَ أتيتَ [إلى العالم] لتمنح الحياة عوضًا عن الموت، المجد لك".

عندما نشعر بأنّ المسيح يعيش في داخلنا، نمجّدُه. وببقائنا أمناء للبركة السماويّة، نجتهد كي نحافظ على الكنز الذي في قلبنا آمنًا، كي لا يُسلَب منّا. ومع أنّ شعورنا بالنعمة يتضاءل، فهذا اختبارٌ من قبل الآب السماويّ، لكي نودع أنفسنا بين يدَيه المقدّستين اللتين ستعبران بنا من الهاوية إلى بركة السكنى معه.

يمنح الربّ الشفاء للذين يتوقون إليه ولا يترقّبون نهاية عذاباتهم على الأرض بلامبالاة. وعلى نفس المنوال، يمنح الله النفس التي تتعطّش إليه وتصبو بحرارةٍ إلى "النار المندّية" (سحر العنصرة، كاثسما 2)، إلى شعلة المعزّي، أن تشرب بوفرةٍ من مياه التقوى، من "ينبوع الماء الذي ينبع إلى حياةٍ أبديّة" (يو 4: 14).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Zacharias Zaharou (2023). *The Sacrament of Confession.* Monastery of Saint John the Baptist, Essex, UK. essexmonastery.com